بين التعبير والتبهير

هاني عبدالله آل ملحم - السعودية

من الجميل أن يبسط الإنسان مساحة تفكيره ناظرا ومتأملا ليجيش بما في خلده وصدره من مشاعر وأحاسيس، يسطر بقلمه رأيا أو عبرة. ولكن الأجمل منه أن يكون لما يكتب معنى وغاية سامية نبيلة.

ولعل الناظر اليوم يلحظ كثرة ما يكتب في الصحف والمجلات من مقالات أدبية وغير أدبية وقصص وما يصدر من كتب متنوعة. ويتذكر ما أخبر عنه ﷺ في شأن علامات الساعة الصغرى وعد منها: «وأن يكثر فيكم القلم». فهي إشارة من الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، والذي أوتي جوامع الكلم، أن الأمة ستبتلى بكثرة الكلام الذي ليس من العلم النافع.

فما يضر الكاتب إن سأل نفسه بعد التروي والتفكير: لماذا أكتب؟ إنه سؤال بدهي ومنطلق سوي!! ويعجبني ما أجاب به أحد الفلاسفة المفكرين في الغرب حينما قال: الكتّاب اثنان: واحد يكتب ليبهر، والآخر يكتب ليعبّر!.

فالإبهار إذا كان هو الغاية التي ينشدها الكاتب والأديب فقد أخفق. لأن المهم هنا هو صدق التعبير، وسلامة الهدف ووضوحه، وحرارة العاطفة دون اللجوء إلى أساليب الإثارة والإبهار، أو محاولة خداع القارئ، أو الإيقاع به في شرك المبهر (الكاتب). خاصة إذا كان يريد تمرير فكرة أو رأي. فإنك تراه يحيطها بأجمل إطار ويتعاهدها بأطيب المبهرات والمحسنات مما يدخل في باب المبالغات أو حتى المغالطات.

ولعل من ارتبط بالمنافسة الصحفية أو الإعلانية يقع في هذا أحيانا. فإن رضينا بهذا وقبلناه مثلا في هذا الباب فإنا لا نقبله في مسائل الفكر الجاد أو المعالجات الموضوعية. فقبل أن تكون الكتابة والتعبير صنعة وهواية يجب أن تكون دراسة ودراية أساسها العلم الناضج الصحيح، والصدق والاحتراق، لا الإبهار والحشو، والتشويق والتقعر.

إننا لا بد أن نجدد السؤال على أنفسنا: لماذا نكتب، ولمن نكتب؟ ولا ننسى أن اختمار الفكرة في رؤوسنا والتعايش معها وغربلتها ضرورية، ثم الاستعداد النفسي الهادئ المتأمل الوعي، البعيد عن التوتر وتزييف الحقائق.

فسهل أن نكتب لنثير زوبعة، أو نقلب حقيقة، أو نحرك قناعة الصابون! ولكن الصعب أن نكتب لنجسد حقيقة واقعية قيمة هادفة ليشعر القارئ بالارتياح والثقة.

فعلى الكاتب أن يتحلى بروح الموضوعية، والدقة والاختصار المفيد، والتركيز على المضمون من غير أن يهمل الشكل، وتكون اللغة سهلة عميقة بعيدة عن التكلف. فإذا عرفنا ميزان الكلمة ومسؤوليتها، وعرفنا كيف ومتى وأين نضع الكلمة: سهل علينا أن نعبر ونفيد، لا أن نبهر ونحيد؟!